عصره الاجتماعي والثقافي

ماذا ينتظرُ أُمّةً عشعشتْ فيها الاضطرابات والفِتن، وتعاقبتْ عليها عُصورٌ وهي لا ترى من الاستقرار إلّا كذَنَب السِرحان ! وتعاقَبَ عليها ملوك وأُمراء لا يعرفون لها حقّاً، ولا يفهمون للأمان معنىً إلّا ما حاط قصورهم !

أُمراء وسلاطين يتنازعون على الملك تنازع الصبيان على لُعَبِهم، ولا فرقَ في ضمائرهم بين أن تُراقَ الخمرةُ على موائدهم، أو تُسفَك الدماءُ تحت حوافِر خيولهم !.

ماذا ينتظر المجتمع إذن غير الفقر والعناء والجهل والتفكّك والضياع ؟

وهكذا كانت الحالة الاجتماعية في هذا العصر نتيجةً طبيعيةً لا غرابة فيها؛ تفشّى الفقرُ قاسياً، وليس ثمّ إصلاحات تَحُدّ من صَولَته. وكثُرت الكوارث الطبيعية، كالسيول والفيضانات والجفاف والزلازل، كثرةً ملحوظةً في هذه الفترة، ولا يعقب ذلك شيء من أعمال الإصلاح والترميم وتعويض المتضرّرين، إلّا ما يعود ضرره مباشرةً على سلطانٍ أو أمير !

ففي سنة ٦٥٦هـ اشتدّ وباءٌ بالشأم وخصوصاً بدمشق حتّى عزَّ مغسّلو الموتى.

وفي سنة ٦٨٠هـ غرقت دمشق.

وفي سنة ٦٩٤هـ جفّت مصر جفافاً هائلاً تبعه غلاءٌ فاحش حتّى أُكلت الميتةُ.

وفي سنة ٧١٨هـ وقعت مجاعة في شمال بلاد الشأم والموصل كانت سبباً في

جلاء الناس وموت الكثير منهم، وغلاء فاحش حتّى باعت الأُمّهات أولادها للنصارى، فإذا امتنع أحدهم من شراء الأولاد تجعل المرأةُ نفسها نصرانية ليرغب في الشراء!

وفي سنة ٧٢٠هـ زُلزلت مصر والشام.

وفي سنة ٧٢٤هـ غرقت مصر.

واستطال الجهلُ، الوليدُ الطبيعي للفقر والعوز، وشاعت أساليب جديدة من التكسّب، فتكسّبوا بالشعر، وبالخرافات والأباطيل، كما تكسّبوا بالمنكرات كالخمرة والحشيشة. فإذا كانت الخمرة قد عُرفت قديماً في قصور الملوك والأُمراء لتأخذ طريقها بيُسر إلى أسواق المدن الكبيرة والصغيرة وتنتشر الحانات في كلّ مكان، فإنّ الحشيشة المخدّرة التي انتشرت هنا في العهد الأيّوبي، ازدهر سوقها كثيراً في هذا العصر حتّى أصبحت من موارد بيت المال المهمّة إذ يصل الديوان من عائداتها كلّ يوم ألف دينار، وهو موردٌ مهمّ في وقته، ودخلت الحشيشة في ثقافة المجتمع ففتحت على الشعراء باباً جديداً، فتغنّوا بها، وفاضَلُوا بينها وبين الخمرة، وأكثروا من ذلك حتّى صار سِمَةً بارزةً في سمات العصر، وحتّى سقط في شراكها كبارٌ ذوُو وجاهةٍ، كَعلَم الدين أحمد بن يوسف (٦٨٨ هـ) الذي عُرف فيما بعد بالشيخ الماجن، ومن قوله فيها:

يا نفسُ ميلي إلى التصابي ... فاللهوُ منه الفتى يعيشْ
ولا تملّي من سُكرِ يومٍ ... إنْ أعوزَ الخمرُ فالحشيشْ [1]

ومع ذلك فإنّ السواد الأعظم من المُسلمين كان يستنكر تلك المظاهر،

---

(١) البداية والنهاية ١٣: ٣٢٣.

ويتأذّى منها، ويتعلّل بما أمكن من دواعي محاربتها. ففي سنة ٦٩١هـ رفع أهل معرّة النعمان قصصاً ودعاوى إلى الملك الأشرف مطالبين بإبطال الخمّارة، فأُبطلت وخرّبت من ساعتها.

وفي سنة ٧٢٠هـ أُريقت الخمور في خندق قلعة المدينة السلطانية! وأُحرقت الظروف، وذلك أنّه وقع بَرَدٌ كبار أهلك المواشي، وأعقبه سيلٌ مخوف، فسأل السلطان الفقهاء عن سببه، فقالوا: من الظلم والفواحش. فأبطل الحانات في مملكته، وأبطل مكس الغلّة الذي كان يُثقل كاهلَ الناس.

وبين الفقر والجهل تُخيّمُ الأجواء الخصبةُ للخرافات والأباطيل، فالناس عندئذٍ أشدّ تعلُّقاً بها من تعلّقهم بحقائق الدين المُسنَدة، فَفُتح بذلك بابٌ جديد للتكسّب كان ضحيّته السُذّج على الدوام.

وتواترت أخبار العوام برؤية المنامات، وكثرة الظواهر، وتحدّثوا بقيام الزَّمنى والمرضى وفتح أعين الأضرّاء عند قبور اكتشفوها في المنامات، ونَقَلَ قومٌ عن قوم أشياء لا أصل لها غير أهوية العوامّ، وبطل الناس من معايشهم وأشغالهم بسبب ذلك، وزعم أحدهم أنّه رأى في منامه ما يدلّ على ظهور قبر أحد الصالحين فهرع الناس إليه وكشفوا التراب عنه فوجدوه صبيّاً مقتولاً وفي جيبه كعاب كان يلعب بها فعرفه أبوه وقال: هذا ولدي فقدته منذ أيام![1].

وترقّى الخيال ببعض المتكسّبين، فادّعوا علم النجوم، ورسموا تقاويم كتبوا عليها أحكاماً بحسب الأبراج، فمنعتهم السلطة من ذلك سنة ٧١٨هـ. وشاء الله أن يُبير تجارتهم فأشاعوا أن الشمس ستكسف في دمشق في الساعة السابعة بعد الظهر

---

(١) الحوادث الجامعة «ابن الفوطي»: ١٦٤.

من يوم الخميس الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٢٦هـ، وذكروا أنّ ذلك ثابت في جميع التقاويم وأنّه حساب لا يُحْرَم. فتهيّأ الناسُ للصلاة فلم تنكسف الشمس، بل انكسف المنجّمون!

وفي أجواء الفقر والبلبلة يكثر اللصوص وقطّاع الطرق، وفي تلك السنين قطع طريق الحاجّ مرّات عديدة.

وإلى جانب ذلك كانت طبقات منعّمة في ظلّ وارفٍ لا تمسّهم سَموم الفقر ولا يجدون ريحه، أوّلهم السلطان والمقرّبون إليه، ثمّ الولاة والأُمراء ونوّابهم، ولكلّ واحد منهم حاشيةٌ تحرس بابه وتأكل على سماطه، وكان هؤلاء يمثّلون قمّة نظام إقطاعي سَنُّوه لأنفسهم.

ثمّ طبقة القضاة وكثير من الفقهاء الّذين كانوا يحظون بعناية السلطان والولاة، وعدد آخر من رجال الدين كان يصطفيهم السلطان فيكونون حوله ويصحبونه في أسفاره أُطلق عليهم طبقة (المُعَمّمين).